نظرات في كتاب "التصوف والباطنية في الأندلس"لـ"ماريبيل فييرو" في ترجمته العربية*

Reviews of the book "Sufism and Esotericism in Andalusia" by Maribel Fierro in his Arabic translation

د.محمد بلال اشمل	كلية أصول الدين جامعة عبد المالك السعدي تطاون العامرة

الإرسال: 2021 / 01 /16 **القبول**: 2021 /01 /26 **النشر**: 2021 /02 /26

الملخص:

تروم هذه النظرات في الترجمة العربية لكتاب "التصوف والباطنية في الأندلس" (2016) للمستعربة الإسبانية "ماريبيل فييرو" مراجعة بعض القضايا الواردة في الكتاب، مثل قضية التصوف، والباطنية، والجدل حولهما، واستشكال سيرة وفكر بعض أعلام الحياة الروحية في الأندلس .

الكلمات المفتاحية: باطنية، الاندلس، استعراب، تصوف، ماريبيل فييرو

Abstract:

These looks at the Arabic translation of the book "Sufism and Esotericism in Andalusia" (2016) by the Spanish Arabist "Maribel Fierro" aim to review some of the issues contained in the book, such as the issue of Sufism and esotericism, and the controversy around them, and to formulate the biography and thought of some of the notables of spiritual life in Andalusia.

Key words:

Maribel Fierro, Sufism, Esotericism;Andalusia

* قُدمت هذه النظرات بحضور المعرب في رحاب كلية الآداب بمرتين يوم 21 فبراير 2017.

يشتغل الأستاذ مصطفى بنسباع، أستاذ التاريخ في كلية الآداب بتطاون (جامعة عبد المالك السعدي)، في شِعب علمي هو البداية والنهاية في كل عمل علمي عظيم القدر والقيمة؛ فهو يؤرخ للمسألة عبر استشكالها في مواضعها الزمنية، ويُترجم لها عبر نقلها من مظانها في لغاتها الأصل، وهو بذلك ينهض بفضيلتين اثنتين: يمكننا من معرفة سياقها التاريخي، ويهيئ لنا أسباب إدراكها في وقتها الزماني، ومن جهة أخرى، يضع بين أيدينا نصها التوثيقي بعد أن يترجمه – هو يفضل تعريبه- من أصله الإسباني أو الإنجليزي. هكذا صنيعه في أغلب النصوص التي وقفنا عليها؛ كمثل عمله عن "الزهاد والصوفية في الأندلس" لـ"مانويلا مرين"،[1] و"الجدل في كرامات الأولياء وتطور التصوف في الأندلس"،[2] و"التصوف والباطنية في الأندلس" لـ"ماربيل فييرو".[3]

(2)

الكتاب الأخير -"التصوف والباطنية في الأندلس" (2016)- يحقق غايتين: الأولى يُهيئ نصا "معربا" للقارئ العربي الذي لا يُحسن الإنجليزية، أو فاته الاطلاع عليه في لغته الأصل، والثانية، يُعيد إلى التداول العلمي قضايا فكرية على قدر عال من الاستشكال فيما يتصل بالتصوف أو بالباطنية، ويضع آخر ما استُشكل فيها لدى الإسلاميات الإسبانية المعاصرة.

ولا بد في هذا الصدد، من التنويه بجهد المعرب في عمله؛ فلا نجد "قلق العبارة" في جملته، ولا نجد ضعف تركيبها في لفظه، على غير ما دأبنا عليه من "التعريبات" التي تحملنا على رد النص، وتجريح المعرب. وبين أيدينا طائفة من النصوص تسلك هذا المسلك، وخاصة من اللسان الإسباني، ومن ألطاف الله أنها نادرة في جنسها، قليلة في سربها.

(3)

ومع أن نصوص الكتاب مُعربة عن الإنجليزية، إلا أنّا نسلُكها ضمن ما نسميه بـ"الإسلاميات الإسبانية". ومن سائر الأسباب التي تحملنا على ذلك هذه التالية: أن صاحبتها إسبانية إراديا وإداريا؛ أن لغات "الإسلاميات الإسبانية" متنوعة ومتعددة؛ أنها تتصل بقضية فكرية وتاريخية نمت ونشأت في أرض الأندلس التاريخية؛ أن المنهج الذي تصطنعه المؤلفة يختلف عما يصطنعه

[1] منشورات كلية الآداب، تطاون، 2010، 149 صفحة من القطع الصغير.

[2] نسق مواده الأستاذ بنسباع، وصدر بعنوان "المغرب والأندلس: دراسات وترجمات"، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي، تطاون، 2010، ص 39-66.

[3] منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطاون، 2016، 177 صفحة.

"الاستعراب" من مناهج، ويقطع مع ما يستعمله "الاستشراق" من طرائق، فضلا عما يعتقد فيه "الاستفراق" من حقائق.

(4)

والأستاذة "ماريبيل فييرو" (1956-) – صاحبة الدراسات المعرّبة- من ابرز الباحثات في "الإسلاميات الاسبانية"؛ فهي تطرق مواضيع في غاية الأهمية والقدر، وتصطنع وسائط تعبير لغوية ما بين إسبانية وإنجليزية وفرنسية، وتعتبر إلى جانب باحثتين من رتبتها، عرّب لهما الأستاذ بنسباع نصوصا أخرى في أعمال مغايرة أمثال "دلفينا سيرانو"[1] و"مانويلا مرين"،[2] غزيرة التأليف؛ إذ أحصينا لها على سبيل المثال مائة وثمانية وعشرين عملا إلى نهاية سنة 2009، ما بين مقال ودراسة ومؤلف مشترك ومؤلف فردي. وهذه الأعمال مفتوحة على الزيادة والتراكم، وتتصل بقضايا تاريخية وفقهية وكلامية وفلسفية متنوعة.

وتتميز الأستاذة "فييرو" عن نظيرتها من الباحثات ضمن "الإسلاميات الإسبانية"، بالجرأة في حسم بعض المسائل الجدلية؛ فقد حسمت مثلا في نسبة كتاب "رتبة الحكيم" و"غايته" لمسلمة بن القاسم القرطبي – كما أشار المعرب الذي لا يبدو أنه متفقا معها تمام الاتفاق لما بين يديه من مؤشرات دالة على نقيض ذلك- ولكن ليس لأن هوى اليقين يغلب على فؤادها كما هو الأمر لدى غيرها من الباحثين –وبين أيدينا لائحة طويلة مثلا من هذا الصنف وإن كان ذلك في غير التصوف كالفقه والكلام مثلا- بل لأنها تضع المؤشرات النصية، والإشارات التاريخية، والسياقات الزمانية، والأنظمة الإبيستيمولوجية موضع فحص ونقد وتمحيص، وتحمل الناظر فيها على التحليل والتركيب والمقارنة والاستنباط والاستنتاج، حتى يكاد يمضي معها متفقا فيما رتبته له من أدلة وحجج، وتهيئ من جهة أخرى الأسباب المنطقية لإبطال دعواها ما استطاع الناظر إلى ذلك سبيلا، وذلك عبر تمهيد السبيل المنهجي لدعاواها العلمية.

(5)

وكما أحسن المؤلف صنعا لما قدم للقارئ العربي نصوصا مُعربة لنظيرتها –"دلفينا" و"منويلا"- هكذا أحسن صنعا لما جمع نصوصا متنوعة وعرّبها لـ"ماريبل فييرو" مدارُ جميعها على

[1] "المرابطون وعلم الكلام الأشعري: جواب فتوى أم إضفاء للشرعية على معرفة هامشية"، مجلة الإبانة، 3/2 (2015)، ص 305-338.

[2] الزهاد والصوفية والسلطة في الأندلس، منشورات كلية الآداب، تطاون، 2010، 149 صفحة.

التصوف والباطنية؛ وتضم أربع مقالات متفاوتة في الطول ومتباعدة في تاريخ النشر، هي بترتيب المعرب "معارضة التصوف في الأندلس" (ص 11-59)، و"الجدل في كرامات الأولياء وتطور التصوف في الأندلس" (ص 63- 94)، و"الباطنية في الأندلس. مسلمة بن القاسم القرطبي مؤلف كتابي رتبة الحكيم وغاية الحكيم" (ص 97)، و"عودة إلى الباطنية في عصر الخلافة الأموية في الأندلس" (ص 141-175).

وللإشارة، فبعض المقالات سبق للمعرب نشرها في مكان آخر، مثل مقالة "الجدل في كرامات الأولياء وتطور التصوف في الأندلس"[1] التي شكلت مادة من مواد كتاب جماعي تحت عنوان "المغرب والأندلس"، نهض بتنسيق مواده المعرب ذاته،[2] ولكنه لم يشر إشارة كاملة إلى مصدرهما الأصلي في كلا الموضعين، كما لم يشر إلى المصدر الأصلي أيضا لسائر المقالات مثل "الباطنية في الأندلس" التي نشرتها المؤلفة سنة 1996،[3] و"معارضة التصوف في الأندلس" التي نشرتها سنة 1999.[4]

ولعل إعادة نشرها هاهنا بالكيفية التي عليها، يستجيب لداعي المعقولية المعرفية والمنطقية التي جناها الكتاب منها؛ فقد عكست طرفا من الجدل على حضور الأولياء في الحياة الدينية والعقلية في الأندلس، وأظهرت السبيل الذي اختطه لنفسه تطور التصوف وعموم الحياة الروحية فيها، وهذا كفيل بان يساعدنا على معرفة تطور التصوف وأهله في تلك البلاد، ويمدنا بأسباب استشكال بعض مسائله وقضاياه.

(6)

[1] "The polemic about the karamat al-awliya, and the development of Sufism in al-Andalus (4th/10th-5th/11th centuries)" *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* Vol. 55, n° 2(1992), pp. 236-249.

[2] تنسيق مصطفى بنسباع، منشورات كلية الاداب، تطاون، 2010، ص 39-66.

[3] "Batinism in al-Andalus. Maslama b. Qasim al-Qurtubi (d. 353-964), auther of the Rutbat al-Hakim and the Ghayat al-Hakim", *Studia Islamica* 84 (novembre 1996), pp. 87-112.

[4] "Opposition to Sufism in al-Andalus", Islamic Mysticism contested. ThirteenCenturies of Controversies and Polemics, ed. F. de Jong y B. Radtke, Leiden: Brill, 1999, pp. 174-206.

كما أن ترتيب المُعرِّب لمقالات الكتاب جاء وفق منطق تاريخي ومعرفي، وليس وفق منطق زمان النشر، ولا تاريخه؛ فـ"معارضة التصوف"، و"الجدل في كرامات الأولياء"، يُهيئ المجال لفهم وضع "الباطنية في الأندلس"، ويعزز فرضيات تحقيق نسبة كتابي "رتبة الحكيم"، و"غايته" إلى "مسلمة بن القاسم القرطبي"، ويحمل على تدقيق النظر في الباطنية في إحدى أطوار الوجود الإسلامي في الأندلس خلال عصر الخلافة الأموية.

إن الترتيب الذي اختاره المعرب ترتيب موفق؛ فقد اختار الانطلاق من الكلي إلى الجزئي، أي من "المعارضات" إلى مظاهرها، أو من التصوف إلى خصومه، ولو أن الانطلاق من الجزئي إلى الكلي له وجه من التوفيق أيضا، غير أن المعرب لم يستحسنه، وله في ذلك رأي مُعتبر ولا ريب.

(7)

ولقد حسبنا أن الكتاب يجمع بين الباطنية والتصوف في الأندلس كما هو بيّن في العنوان، ولكن المعرب سارع إلى تنبيهنا على ضرورة الفصل بين التصوف والباطنية، وفي ذلك من الفائدة ما فيه؛ إذ قد يقع في وعي بعض الناس أن التصوف في الأندلس نشأ فاستوى باطنيا كله، فيشتد نفورهم منه، ويتعمق الجهل لديهم بطبيعة الحياة الروحية في الأندلس، ويبخسوا من ثم، حق المؤلف والمعرب معا. إلا أن هذه الشبهة لا تزول بزوال التنبيه، لأن اختلاط التصوف بالباطنية في الأندلس وقع، ورجاله معروفون، ومسائله مطروقة في التاريخ بدءا من "آسين بالاسيوس"[1] إلى "ماريبيل فييرو"،[2] مرورا بـ"كاترينا روسي"،[3] و"رامون غيريرو"،[4] و"كروث إيرناندیث".[5]

[1] *Abenmasara y su escuela. Orígenes de la filosofía hispano-musulmana*, Imprenta Ibérica, Madrid, 1914.

[2] "Opposition to Sufism in al-Andalus", Islamic Mysticism contested. Thirteen Centuries of Controversies and Polemics, ed. F. de Jong y B. Radtke, Leiden: Brill, 1999, pp. 174-206.

[3] *Il trono - Ibn Masarrah di Cordoba (883-931), il proto-filosofo arabo d'Andalusia*, Moro Editore. 2012.

[4] "Ibn Masarra, gnóstico y místico andalusí", en *Las raíces de la cultura europea. Ensayos en homenaje al profesor Joaquín Lomba*, Zaragoza, Prensas Universitarias de Zaragoza - Institución Fernando El Católico, 2004, pp. 223-239.

[5] "La persecución anti-masarrī durante el reinado de ᶜAbd Al-Raḥmān al-Naṣir li-Dīn Allāḥ, según Ibn Ḥayyān", *Al-Qanṭara*, 2 (1981) 51-67.

(8)

صحيح إن المُعرب لم ير حاجة إلى وضع دراسة تركيبية لموضوع "التصوف والباطنية في الأندلس"؛ يُضمنها ما يراه من آراء حول الموضوع؛ لاسيما تلك التي تنطوي على كثافة إشكالية شديدة، واكتفى فقط بوضع مقدمة تعريفية بمجمل الدراسات التي عرّبها، خشية "أن لا تتضخم" بها مقدمته، ولكنه أشار فيما أشار إلى أنه سيعود إلى طرق مسألتين: الأولى، العودة إلى تلك الدراسات عودة نقدية علمية مُفصلة، والثانية، تحقيق مسألة نسبة كتابي "رتبة الحكيم"، و"غاية الحكيم" إلى مؤلفه الحقيقي وفق ما تحصل لديه من مؤشرات أفصح عنها، وليس إلى أبي مسلمة ابن القاسم القرطبي الذي عدّتهُ الأستاذة "ماربيل" على الأصالة مؤلفا لـ"الرتبة" و"الغاية".

ونحسبه في إشارتيه يعِدُ وعد العالم إلى إنجاز ذلك إن أنسأ الله له في العمر، فينشر على الناس دراسات متفرقة أو مجموعة في كتاب جماعي أو فردي يضمنها ما يرتئيه من رؤى ونظرات حول التصوف والباطنية وما يحف بهما من مسائل وقضايا ذات الصلة في الأندلس.

كما أن المعرب لم يشأ وضع هوامش للدراسات التي عربها؛ إما لأنه لم ير حاجة إليها، فالقول واضح مفهوم، والقضية سائغة متناولة، أو أنه أحب إرجاءها إلى دراسة مفصلة هي الآن قيد الانشغال والاشتغال، فيعرض طائفة مما لديه على القراء بعد أن وضع بين أيديهم النص الأصلي في لسانه العربي، أو هو يذهب مذهب المؤلفة فيما استمسكت به من آراء فانصرف إلى تعريب المتن دون العناية بالهامش.

ونرجح أن المعرب صنع هذا وذاك؛ فقد سكت عما صح عنده من رأي، وذهب مذهب المؤلفة فيما اعتقدته من نظر، وأرجأ الفصل فيما هو موضع اختلاف إلى مناسبة أخرى. والشاهد على ذلك أنه دعا إلى التدقيق فيما ذهبت إليه المؤلفة من نفي تأثر ابن العريف وابن برجان بابن مسرة، وحصول معارضة الصوفية المعتزلين والزهاد والصوفية الأفراد أمثال ابن عاشر وابن عباد الرندي، وطبيعة علاقة طريقة بني سيد بونة مع حكام بني أمية، والأسباب العقدية لمعارضة الفقهاء للطرق الصوفية.

(9)

ولعل في هذا الصنيع بضع فضائل، منها التعريف بالمتن العلمي فيما يتصل بالتاريخ الأندلسي عامة، والحياة الروحية خاصة، وما لهما من صلات وثيقة بالمغرب وعموم الغرب الإسلامي، والمشاركة في استشكال القضايا التي تنطوي عليها الحياة الروحية، واستئناف الحوار العلمي مع وجوه الإسلاميات الإسبانية، وإعادة قراءة أعمال القدامى منهم والمحدثين، وتمحيص

حقائقها، وتحقيق فرضياتها على هدي ما تحصل لديهم من مخطوطات، وما استجد لديهم من آلات القراءة والتأويل.

ونقدر أن إحدى مظاهر قيمة ما أنجزه الأستاذ بنسباع، ضمن ما نرجح أنه رؤية تاريخية ساعية إلى إدراك الأسباب الفكرية للوقائع الاجتماعية، ولاسيما تعريبه لـ"الزهاد والصوفية في الأندلس" لـ"مانويلا مرين"، و"الجدل في كرامات الأولياء وتطور التصوف في الأندلس"، و"التصوف والباطنية في الأندلس" لـ"ماربيل فييرو"، حرصه الشديد على تهيئة النصوص العلمية من هذا المتن، وتعريبها، ودعوة الباحثين إلى العناية بها حسب الجهد والقدرة.

(**10**)

ونحن إن بسطنا خريطة التداول العلمي أمامنا فيما يتصل بالحياة الروحية في الأندلس، وبغيرها من مظاهر الحياة العلمية كالعلوم الشرعية والكلام والفلسفة على سبيل المثال، سنجد أن القول فيها لا يحسن الإحالة على متن الإسلاميات الإسبانية، وإن فعل، فغالبا ضمن القول التاريخي، وليس ضمن القول الشرعي أو الفقهي أو الفلسفي أو الكلامي. هذا على ما في قوله من عجمة أو لحن في غالب الأحيان، تجعل الواقف عليه يشك في بضاعته العلمية.

السبيل الذي اختطه الأستاذ بنسباع، إن بتعريبه لمتن الإسلاميات الإسبانية، أو باطلاعه على ثمارها المنشورة في لغاتها الأوروبية، أو بتطارحه لقضاياها ضمن القول التاريخي، سبيل واصل إلى غاياته، مسدد بآلياته، لا ينفي الواحدية الثقافية التي يجمد عليها الفكر المغربي فقط، بل يؤكد على وجود عوالم لغوية وفكرية ممكنة، استطاعت بحكم جدارتها العلمية، وكفاءتها المنهجية، فتح آفاق أوسع من النظر والتدبر.